مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

مقالات

الصهيونيّة السياسيّة والحداثة الغربيّة
محاولة لتشريح العلاقة

د. محمّد هاشم البطاط

2024

www.barathacenter.com

الصهيونيّة السياسيّة والحداثة الغربيّة - محاولة لتشريح العلاقة

د. محمّد هاشم البطاط

◆ تاريخ الطبعة:
2024 م- 1446هـ

◆ مكان الطبعة:
بيروت - بغداد

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

الصهيونيّة السياسيّة والحداثة الغربيّة - محاولة لتشريح العلاقة

د. محمّد هاشم البطاط[1]

ملخّص

ثمّة تحليلات كثيرة، لا تخلو من الإشـكال والالتباس، بخصوص الحركة الصهيونيّة وملازماتها، واللافت أنّها أخذَت موقعها المركزيّ لدى الكثيرين، جرّاء التلقين التكراريّ وتكثيفها عبر وسـائل الإعلام وفواعل السياسة؛ الأمر الذي يسـتدعي القيام بمراجعات ومتابعـات متواصلة تهدف إلى تقديم فهم أكـثر واقعيّة وحقيقة تجاه هـذه الحركة، التي لعبـت دورًا تخريبيًّا في منطقة الشرق الأوسـط والعالم. ولعلّ من الأهمّيّة بمكان، الإشـارة إلى أنّ أحد أبرز هذه التحليلات المغلوطة هو الإشارة إلى تفكُّك أواصر العلاقة والارتباط كلّها بينها -الحركة- وبين الحداثة الغربيّة، وطبيعة علاقة الأخيرة وأثرها في الحضارة الغربيّـة، وهذا ما تحاول هذه الصفحات مقاربته بنحوٍ لا يخلو من الاختصار والاختزال غير المخلّ.

الكلمات المفتاحية:

الصهيونية – المسألة اليهودية - وعد بلفور– فلسطين – الدولة القومية – الثورة الصناعية – الجماعات الوظيفية – إدارة التوحش – الاستعمار – المركزية الأوروبية – الحداثة.

1 - أستاذ الفكر السياسيّ في كلّيّة العلوم السياسيّة – العراق - بغداد.

أوّلًا: الصهيونيّة السياسيّة - البُعد الدلاليّ

تُعَـبِّر الصهيونيّة السياسـيّة عن الحركة اليهوديّة التـي عملَت على توحيد الجماعات اليهوديّة وجمع شـتاتها في وطن واحـد. وعلى الرغم من وجود خيارات جغرافيّة متعدّدة شغلَت العقل الصهيونيّ في مرحلة السعي للبحث عن وطن لليهود، إلّا أنّ فلسـطين المحتلّة شكّلَت، لزعامات الحركة، خيارًا إسـتراتيجيًّا يسـهم في توظيف الرمزيّة الدينيّة لفلسـطين، فكان سـعي هذه الزعامات إلى جعـل الدوافع الدينيّة غطاءً لجعل اليهود يهاجرون بنحوٍ أكثر كثافـة إلى الأرض المقدّسـة. وإذا كان الكيـان الصهيونيّ قد تأسَّـس فعليًّا في العـام 1948م، فإنّ مصطلح الصهيونيّة قد سـبق هذا التأسـيس بكثير، إذ يُمكن تلمُّسـه في قرون سابقة. ولعلّ أبرز إشارة يمكن إيرادها هنا، هو ظهور المصطلح -بوصفه سـعيًا يهوديًّا لإقامـة دولة لليهود تحلّ مشـكلتهم، كما يزعمون- على يد الكاتب اليهوديّ (ناثان بيرنباوم – Birnbaum Nathan)، الـذي كتب مقالاً في مجلّـة «التحرّر الذاتيّ»، تكلّم فيه عـن الصهيونيّة عام 1890م، ثمّ أعاد تأكيده في كتابٍ له صدر عام 1893م، تحت عنوان «الإحياء القوميّ للشعب اليهوديّ في وطنه كوسيلة لحلّ المشكلة اليهوديّة».

وقد كان حضور هذا المصطلح، عند (بيرنباوم)، يمثّل استجابة نظريّة لواقع فعليّ يتمثّل في ظهور مجموعة من التنظيمات اختارَت كلمة «صهيون» اسمًا لها، مثل جمعيّة «أحبّاء صهيون»، فضلا عن الإكثار من استخدام الكلمة في شعارات رجالات الفكر الصهيونيّ، وخطاباتهم وكتبهم أواخر القرن التاسع عشر. ويُعرِّف (بيرنباوم) الصهيونيّة بوصفها «نهضة سياسيّة لليهود، تستهدف عودتهم الجماعيّة إلى أرض فلسطين». وفي العام 1896م، نشر الصحافيّ اليهوديّ (ثيودور هرتزل - Theodor Herzl) كتابًا اسمه «دولة اليهود»، طرح فيه فكرة اللاساميّة وكيفيّة علاجها، وهو إقامة وطن قوميّ لليهود. وفي العام 1897م، نظّم (هرتزل) أوّل مؤتمر صهيونيّ في مدينة «بازل» السويسريّة، وحضره 200 مفوّض، حيث صاغوا «برنامج بازل»، الذي سيظلّ هو برنامج الحركة الصهيونيّة[1].

إذًا، تأتي الصهيونيّة السياسيّة بوصفها تعبيراً عن الحركة التي سعَت إلى توحيد الجماعات اليهوديّة، ودفعِها إلى الهجرة إلى فلسطين، عقب المقرّرات التي خرج بها المجتمعون في «مؤتمر بازل» في سويسرا، وهي حركة عنصريّة تقوم على توظيف الرمزيّات والأفكار الدينيّة لتحقيق الدوافع الاستعماريّة السياسيّة التي آمن بها كبار الشخصيّات الصهيونيّة. لكنّ السؤال المهمّ هنا،

1 - للتوسُّع، يُنظر: إدريس جنداري: «الحركة الصهيونيّة - مشروع استعماريّ غربيّ بغطاء يهوديّ».

هل انطلقَت الحركة الصهيونيّة السياسيّة من رحم المعتقد اليهوديّ الخالص، أم إنّها انطلقَت بنحوٍ مغاير؟

ثانيًا: الصهيونيّة السياسيّة - النشأة الملتبسة

يحـاول اليهـود الصهاينة ومَـن معهم، تصويـرَ الانتقال من شـتاتهم في العالم إلى فلسـطين المحتلّة، بوصفه عودة إلى أرض الميعاد التي ينتسـبون إليهـا تاريخيًّا، وأنّ الديانـة اليهوديّة هي الباعث الرئيـس في دفعهم للهجرة إلى فلسطين؛ أي إنّ النشـأة الطبيعيّة لـ«إسرائيل» ناجمة عن المعتقد الدينيّ ومسـتندة إليه، في حين أنّ الواقع يكشـف غير ذلك؛ إذ إنّ الأفكار الرئيسـة للحركة الصهيونيّة بدأَت تتبلور أواسـط القرن التاسـع عـشر، قبل أن تنطلق رسميًّا عبر مخرجات «مؤتمر بازل». وفي هذا القرن، حدثَت تحوّلات جوهريّة في أوروبّا، ولا سـيّما في جانبها الغربيّ، وبنحـوٍ مكثّف، صارت مخاضات الحداثة وما نجم عن الثورة الفرنسـيّة وغيرها، أكثر إيناعًا ونضوجًا في تغيير بُنية الدولة والمجتمـع الغربيَّين؛ فمن جهة، انتشرَت الأفكار التحرّريّة، وقيم المسـاواة والحرّيّة، وقيم الفلسـفة الغربيّة التي أصّل لها ونظّر كبار الفلاسفة الغربيّين، ومن جهة أخرى، تعالت وتيرة المشاريع الاستعماريّة/الكولونياليّة الغربيّة تجاه دول آسـيا وأفريقيا وأميركا اللاتينيّة، ومن جهة ثالثة، برز النزوع القوميّ وفكرة الدولة القوميّة (National State)، التي مثّلَت مخرجًا لمعاناة

الأوروبّيّين من حروب وصراعات دينيّة ومذهبيّة طويلة.

هذا الثالوث الرئيس (الفكر الرأسماليّ الليبراليّ - المشروع الاستعماريّ - النزعة القوميّة) الذي يُعبّر عن إرهاصات الحداثة الغربيّة، في كلّه أو أغلبه، له دور أساس في نشأة الحركة الصهيونيّة السياسيّة، وسنوضحه وفقًا للآتي:

1 - مأزق الجماعات اليهوديّة في العالم الليبراليّ الرأسماليّ

في الوضع ما قبل الليبراليّ/الرأسماليّ، كانت القيم الإقطاعيّة هي السائدة في أوروبّا، وكانت هويّة الدولة ودينها محدّدَين سلفًا، والمشاركة السياسيّة مغلقة بوجه الكثير من فئات المجتمع وجماعاته، ومن ثمّ كان اليهود يحتفظون بخصوصيّتهم الدينيّة كجماعة مغلقة على ذاتها، وهذا ما يحبّذه اليهود؛ إذ يعتقدون أنّ الانغلاق يسهم في حفظ خصوصيّتهم، ويُبعِدهم عن الآخرين، نتيجة النزوع العنصريّ داخل الكثير من العقليّات اليهوديّة. إلّا أنّ انتشار الفكر الليبراليّ أسهم في خصخصة قضايا الدين والسياسة، وجعل الدين مسألة فرديّة، وجعل المشاركة السياسيّة تعبّر عن فعل فرديّ يمارسه الفرد بذاته، لا كجماعات؛ الأمر الذي جعل اليهود يواجهون مشكلة التشظّي داخل البوتقة الليبراليّة، وهو ما يرفضه اليهود بالتأكيد، ومن ثمّ وجود حاجة ملحّة إلى البحث عن خيار الحفاظ على الجماعة اليهوديّة ووحدتها بشكل مركزيّ، وهو ما أصبح صعبًا في إطار التنظيم الاجتماعيّ/السياسيّ الجديد، وخصوصًا داخل المجتمع الأوروبيّ ومخاضاته الليبراليّة الجديدة.

وفي المقابل، فإنّ الليبراليّين لم يكونوا راغبين بإبقاء الجماعات التي ترفض الخصخصة ككيانات جماعيّة داخل مجتمعهم؛ هذا سياسيًّا. أمّا اقتصاديًّا، فإنّ النظام الرأسماليّ يقوم على الجانب الصناعيّ، وقد كانت الجماعات اليهوديّة تجيد التعامل الربويّ والربح المادّيّ دون جهد يُذكَر، في ظلّ انطلاقة رأسماليّة تبحث عن الفعل الصناعيّ بشكل محدّد ومركّز؛ الأمر الذي جعل الكثيرين يشعرون أنّ وجود اليهود، بطريقتهم الاقتصاديّة هذه، يشكّل عَقَبة أمام انطلاقة رأسماليّة سليمة في العالم الليبراليّ الجديد.

وربمّا يمكن القول إنّ الرأسماليّة أدّت إلى تحوُّل اليهود إلى جماعة وظيفيّة دون وظيفة. فبَعد أن تحوّلَت المجتمعات الأوروبّيّة من الإقطاع إلى الرأسماليّة، بدأ وضع اليهود بالاهتزاز بشدّة، ومن ثمّ فقدوا وظيفتهم الأساسيّة التي كانوا يقومون بها في المجتمع الإقطاعيّ، وبدلًا من أن يلعبوا دورًا مثمرًا أو منتجًا، صاروا عبئًا حقيقيًّا على المجتمعات الأوروبّيّة، التي سارعَت إلى نبذ الغالبيّة العظمى منهم. وكان اليهود المطرودون يحلّون مشكلتهم عن طريق التقهقر إلى الوراء؛ أي بالهجرة إلى مجتمعات لا يزال النظام الإقطاعيّ فيها ثابتًا مستقرًّا، وكلّما ازداد القطاع الرأسماليّ قوّة، ازداد تراجُع النفع الذي يمكن أن يقدّمه هؤلاء، وازداد تبلوُر وضعهم كجماعة وظيفيّة بلا وظيفة. ومن هنا، طَرَحَت المسألة اليهوديّة نفسَها على أوروبّا الشرقيّة في البداية، ثمّ على أوروبّا الغربيّة، ثمّ على العالم بأسره.

2 - المشروع الاستعماريّ الغربيّ والصهيونيّة

لقد انطلقَت الحركة الصهيونيّة، بوصفها تماهيًا مع الخطاب الاستعماريّ الأوروبيّ، في مرحلة شكّلَت ذروة الحركة الكولونياليّة/الاستعماريّة في الغرب، والتنافس بين الدول الكبرى الأوروبيّة على أوجه. فعلى سبيل المثال، يكتب (ثيودور هرتزل) في كتابه «البلاد القديمة الجديدة»، تمجيدًا بالأوروبيّين، وطعنًا في السكّان الأصليّين الذين يستعمرهم الأوروبيّون، أنّ هؤلاء السكّان عبارة عن برابرة أمام تحضُّر الأوروبيّين ومدنيّتهم[1]! أمّا في كتابه «دولة اليهود»، فيؤكّد أنّ العالم ينقسم إلى قسمَين: أمم متحضّرة وأمم بربريّة، في تماهٍ وانسجامٍ مطلق مع الخطاب الاستعماريّ السائد في أوروبّا إبّان القرن التاسع عشر. ويُقرّ(هرتزل) بأنّ الصهيونيّة -كمشروع- هي جزء من المشروع الاستعماريّ الأوروبيّ، حين يذكر أنّه «بالنسبة إلى أوروبّا، سنمثّل جزءًا من السدّ أمام آسيا، سنخدم في الخطّ الأماميّ لندافع عن الحضارة ضدّ البربريّة، وسنبقى -كدولة مستقلّة- متحالفين مع أوروبّا، التي ستضمن -بالمقابل- وجودنا»[2]. هكذا يؤكّد زعيم الصهيونيّة السياسيّة انتسابَ مشروعه إلى المشروع الاستعماريّ الأوروبيّ، في إشارة صريحة إلى تبادل المنفعة الاستعماريّة والمقايضة بين الطرفَين، وهو ما يكشف التحالف الإستراتيجيّ الذي نلاحظه حتّى اليوم في العلاقة بين الكيان

1 - نقلاً عن: رائف رزيق: إسرائيل - خلفيّة أيديولوجيّة وتاريخيّة، ص12.
2 - نقلاً عن: رائف رزيق: إسرائيل - خلفيّة أيديولوجيّة وتاريخيّة، ص12.

الصهيونيّ والدول الغربيّة ذات الخلفيّات الاستعماريّة نفسها؛ إذ تُراعى مصالح الكيان في مقابل أن يشكّل حليفًا لهم في المنطقة، وراعيًا لمصالحهم، ومنفّذًا لإستراتيجيّتهم بما يخدم رغبات الطرفَين ومصالحهما.

هذا مـن جهة، ومن جهة أخـرى، نُظِر إلى اليهود الأوروبيّين، في سـياق التحـوّلات التي أجرَتهـا، وتجريها، الحداثة الغربيّة، عـلى أنّهم تحدٍّ للنظام الطبيعيّ للعالم، وفق الرؤية الجديدة التي جرى إنتاجها غربيًّا، فهم لا ينتمون إلى قوميّـة معيّنة يمكـن تعريفهم عبرها، فهم ينتمـون إلى قوميّات مختلفة، متشـظّية في الجسـد الأوروبيّ، ولا ينتمون إلى أرض واحدة يمكن نسبتهم إليهـا، مضافًا إلى أنّهم يشـكّلون عِبئًا على المجتمع؛ لانتشـارهم في طبقاته جميعًـا؛ فالبرجوازيّة الجديدة -الطبقة الوسـطى- ترى فيهـم خدَمًا للإقطاع القديم، والإقطاع يرى فيهم صورة البرجوزايّة الجديدة التي تهدمُ أساس بنيانه الاقتصاديّ والاجتماعيّ العتيق. وهكذا، عُهِد إلى الدولة الحديثة، ممثّلةً في بيروقراطيّتها، بمَهَمَّة حلّ هذه المشـكلة، ولَم تجـد الدولة الحديثة خيراً من الإمبرياليّة والنزوع والاستعماريّ كحَلّ لهذه المشكلة[1].

3 - الدولة القوميّة الأوروبيّة والحركة الصهيونيّة

بعـد الحروب المريرة في أوروبّا، والتي كانت ناجمة عن أسـباب سياسـيّة

1 - بتـصرّف عـن: التصدير الذي كتبـه مركز مدارات كمدخل لكتـاب: زيغمونت باومان: الحداثة والهولوكوست، ص17.

ودينيّة واقتصاديّة وغيرها، وبعد أن شهد العالم الغربيّ تحوّلات فكريّة في صميم بُنيَته، جرى الارتكان إلى مبدأ الدولة القوميّة، الذي يعني ترك معطيات الانتماء الدينيّ أو العِرقيّ كلّها في الانتساب إلى الفعل السياسيّ والمشاركة السياسيّة. وقد وجد الأوروبيّون -وقتها- أنّ الدولة القوميّة تمثّل حلاًّ جوهريًّا للمشكلة، وهو حلٌّ ناجم من معطيات الحداثة الغربيّة والفكر الليبراليّ. إلّا أنّ مبدأ الدولة القوميّة في أوروبّا أخذ مسارَين مختلفَين؛ الأوّل: مسار الدولة التي تؤسّس للأمّة؛ أي أنّ الدولة تُحدَّد مسبقًا، ثمّ هي مَن تعيد صياغة مفهوم الأمّة، والثاني: مسار الأمّة التي تؤسّس للدولة. والصهيونيّة تأثّرت بالفكر القوميّ ضمن المسار الثاني، الذي نما وتطوَّر شرقيّ نهر «الراين»، والذي كان مختلفًا عن الفكر القوميّ الذي نشأ غربيّ الراين. ففي غرب أوروبّا، وفي فرنسا بالتحديد (المسار الأول)، بُنِيَت فكرة الأمّة على الجغرافيّة السياسيّة، وسبقَت فيها الدولةُ وجودَ الأمّة؛ أي إنّ الدولة كانت قائمة، وحدودها معرّفة، وفي واقع الأمر، هي التي عرَّفَت الأمّة وحدَّدَتها تحديدًا جغرافيًّا. وكان المشروع الفرنسيّ - الغربيّ للأمّة مشروعًا تراكميًّا اندماجيًّا، يشارك فيه كثير من الفئات الإثنيّة التي جاءت من أصول متعدّدة، وهو لا يَشترط لبناء الأمّة أيَّ انتماء عرقيّ مسبق، بل إنّ الاندماج في الأمّة هو طوعيّ وفرديّ. أمّا في النموذج الشرق الأوروبيّ (المسار الثاني) «ألمانيا - إيطاليا - روسيا - البلقان»، فإنّ المشروع القوميّ هو في الأساس مشروع مبنيّ على أساس عرقيّ - لغويّ - وشائجيّ، تسبق فيه القوميّة وجود

الدولــة، فهي التي تقيم الدولة، وهي قائمة -أو هكــذا يُخَيَّل إليها- قبل الدولة وبعدها. وما الدولة، في هذا المنظور، سوى أداة للمشروع القوميّ[1].

ثالثًا: علاقة الصهيونيّة بالحضارة الغربيّة

قدّم المفكّر المصريّ (عبد الوهّاب المسـيري) مقاربة مهمّة حول نشـأة الحركة الصهيونيّة في سياق الحضارة الغربيّة، في كتابه «الصهيونيّة والحضارة الغربيّة»، الذي أثبت فيه أنّ وضع الجماعات اليهوديّة قد صاغَته مجموعة من الظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي مرَّت بها القارّة الأوروبّيّة، والتي أدَّت إلى تحوُّل اليهود إلى جماعة وظيفيّة دون وظيفة. فبَعد أن تحوَّلَت المجتمعات الأوروبّيّة من الإقطاع إلى الرأسماليّة، بدأ وضع اليهود بالاهتزاز بشدّة، ففقدوا وظيفتهم الأساسـيّة التي كانوا يقومون بها في المجتمع الإقطاعيّ، وبدلًا من أن يلعبوا دورًا مثمرًا أو منتجًا، صاروا عبئًا حقيقيًّا على المجتمعات الأوروبّيّة، التي سارعَت إلى نبذ الغالبيّة العظمى منهم. وكان اليهود المطرودون يحلّون مشـكلتهم عن طريق التقهقر إلى الـوراء؛ أي بالهجرة إلى مجتمعات لا يزال النظام الإقطاعيّ فيها ثابتًا مسـتقرًّا. وكلّما ازداد القطاع الرأسماليّ قوّة، ازداد تراجُـع النفع الذي يمكـن أن يقدّمه هؤلاء، وازداد تبلـوُر وضعهم كجماعة

1 - التصدير الذي كتبه مركز مـدارات كمدخل لكتاب: زيغمونت باومان: الحداثة والهولوكوست، ص13.

وظيفيّـة بلا وظيفة. ومن هنا، طَرَحَت المسـألة اليهوديّة نفسَـها على أوروبّا الشرقيّة في البداية، ثمّ على أوروبّا الغربيّة، ثمّ على العالم بأسره.

وكما أدّى التطوّر الرأسـماليّ إلى ظهور المسـألة اليهوديّـة، فإنّه قد أدّى أيضًا إلى ظهور الحلّ الصهيونيّ. فقد تولَّد عن عمليّة النموّ الرأسماليّ، نمطٌ اسـتهلاكيٌّ، ورغبةٌ عارمة في الاسـتيلاء على الأسـواق العالميّة؛ لاستيعاب الإنتاج الجديد. ومن أهمّ المشاكل التي نجمَت عن الثورة الرأسماليّة، مشكلة الانفجـار السـكّانيّ، وهو الأمر الـذي زاد من حدّة أزمة البطالـة، وأدّى إلى ظهـور جماعات من المتعطّلين الذين كان يُطلَـق عليهم اصطلاح «الفائض السـكّانيّ». وقد وجد الاسـتعمار الغربيّ أنّ الحلّ الأمثل للمسألة اليهوديّة، يكون بتصدير اليهود إلى المناطق المستعمَرة، وكان هذا متّسقًا تمامًا مع الرؤية الاسـتعماريّة الغربيّة للكون، والتي حوّلَته إلى مادّة استعماليّة يوظّفها القويُّ كما شاء، لخدمة مصالحه، كما كان متّسقًا مع الرؤية الغربيّة العنصريّة، التي رأت ضرورة التخلُّص من اليهـود. وفى مقابل هذا، يصبح الجيل الصهيونيّ الجديـد الدخيل عميـلاً للقوّة العظمى التي تقوم بحمايتـه، وهذا هو النمط الأساسيّ الذي يتواتر في الكتابات الصهيونيّة.

وتظهر عمالة الاسـتعمار الصهيـونيّ في بحثه الدائـب -وبخاصّة في مراحله الأولى- عـن قـوّة إمبرياليّة ترعاه. وقـد كُلِّلَت هذه الجهـود بالنجاح بعد صدور «وعد بلفور»، حيث أصبحت لندن هي مركز القيادة الصهيونيّة العالميّة. وبعد أن

انتقل مركز الإمبرياليّة العالميّة من العاصمة الإنجليزيّة إلى واشنطن، انتقلَت القيادة الصهيونيّة، هي الأخرى، إلى هناك؛ لتضمن أن تكون على مقربة من القوّة الأساسيّة التي ترعاها. وكون الصهيونيّة قد تبنَّت المفهوم نفسه (تصدير الفائض اليهوديّ، مع ما يصدّر من مشاكل وسِلَع بائرة، إلى آسيا وأفريقيا أو أيّ مكان آخر بخلاف أوروبّا) يُظهر -وفقًا لـ(المسيري)- أنّ الإدراك الصهيونيّ للذات وللآخر يضرب بجذوره في الرؤية الاستعماريّة الغربيّة. وهذا ما صرّح به معظم منظِّري الحركة الصهيونيّة أنفسهم، حينما رأوا أنّ دولتهم الصهيونيّة سوف تكون بمثابة إمبراطوريّة بريطانيّة مصغَّرة، تقوم على أكتاف مجموعة مؤسّسات استعماريّة بدورها، مثل: الشركة اليهوديّة الاستعماريّة، والبنك الاستعماريّ، والصندوق اليهوديّ الاستعماريّ. إذ أثبَت (المسيري) أنّ العناصر الأساسيّة -المادّيّة والمعنويّة- التي دخلَت في تكوين الرؤية الصهيونيّة للواقع، متمثّلة في أنّ الصهيونيّة ليست مجرّد انحراف عن الحضارة الغربيّة الحديثة -كما يحلو لبعضهم القول- وإنّما هي إفراز عضويّ لهذه الحضارة، وأنّها الحداثة التي ترمي إلى تحويل العالم إلى مادّة استعماليّة تُوَظَّف لصالح الأقوى، في مقابل الحداثة الإنسانيّة التي ترمي إلى تحقيق التوازن بين الذات والطبيعة، والتي تطالب بتكاتف أبناء الجنس البشريّ كلّهم لإعمار الأرض لصالح البشريّة جمعاء، بما في ذلك الأجيال القادمة[1].

1 - () عبد الوهّاب المسيري: الصهيونيّة والحضارة الغربيّة، ص.ص. 4 وما بعدها.

رابعًا: الصهيونيّة نتاج الدين أم السياسة؟

بعد ما طُرِح سابقًا، يتبيَّن أنّ ظهور الحركة الصهيونيّة له صلة وثيقة بالحداثة الغربيّة، وصيرورتها، ومقارباتها، ضمن ثالوث (الليبراليّة - الدولة القوميّة - المشروع الاستعماريّ)، وهو ثالوث فيه ما هو داخل بالحداثة مباشرة، أو ملازم لها ومجايل. فتكون نشأة الصهيونيّة نشأة سياسيّة بامتياز، ولا صحّة لفكرة أنّ الدين اليهوديّ هو الذي أوجدها، ومن الخطأ القول إنّ الزعامات اليهوديّة التي أسَّسَت الصهيونيّة، قد انطلقَت من رؤية دينيّة بحتة، كما يصوِّر الصهاينة؛ من أجل حثّ اليهود في العالم للهجرة إلى فلسطين. وهنا، نكون أمام السؤال المركزيّ حول طبيعة العلاقة بين الصهيونيّة والدين؟

في البداية، من الأهمّيّة بمكان الإشارة إلى أنّه قبل عقد المؤتمر الصهيونيّ الأوّل في سنة 1897م في «بازل»، بنحو شهرَين، أصدرَت اللجنة التنفيذيّة لـ«مجلس الحاخامين الألمان» بيانًا رسميًّا دانت فيه المحاولة الصهيونيّة لإقامة دولة قوميّة في فلسطين، وكانت هناك ردّة فعل قويّة من الكثير من الجماعات اليهوديّة في الغرب وخارجه، والتي اعتقدَت أنّ الحركة الصهيونيّة تخالف المعتقد اليهوديّ، وأنّها تسعى إلى توظيف الرموز الدينيّة والمعتقدات لأغراض سياسيّة صرفة. وبعبارة أخرى، لقد آمنَت الحركات اليهوديّة الدينيّة بفكرة الخلاص، غير أنّها عَدَّتها مَهَمَّة سماويّة تتمّ حينما يظهر المسيح المنتظَر، ويكمن دور اليهوديّ المتديِّن في الابتهال والصلاة، وليس أكثر من

ذلك، والخلاص بحاجة إلى عناية إلهيّة، كما أنّ الخروج من مصر حدثَ بمشيئة ومساعدة إلهيَّين. ومن ثمّ، فإنّ دور اليهوديّ المتديّن في مشروع الخلاص، هو دور يكتفي بالصلاة والانتظار، والصهيونيّة، بتركيزها على العنصر الذاتيّ والعمل المبرمج لتقريب الخلاص عبر جهد دنيويّ، هي أشبه بالكفر، وضربٌ من التدخُّل في الشؤون الإلهيّة؛ ولذلك تجب معارضتها.

واللافت للنظر، أنّ كبار زعماء الحركة الصهيونيّة لم يكونوا متديّنين، بل كانوا يتبنّون الرؤية العَلمانيّة المنطلقة من إفرازات الحداثة الغربيّة، وعلى رأسهم (ثيودور هرتزل) نفسه، الذي أجاب حين سُئِل عن عودة المسيح، بقوله: «إنّ هذه الفكرة غير سائدة في أوساطنا الأكاديميّة المستنيرة، وإنّما موجودة داخل الأوساط الدينيّة». بل لم يُخفِ (هرتزل) عداءه للدين والمتدينيّن، وعلى الرغم من العداء الشديد الذي أظهرَه (هرتزل) ورفاقه للدين وللمتديّنين اليهود، الذين قاوموا فكرة التدخّل البشريّ من أجل تحقيق مَهَمَّة سماويّة، إلاّ أنّهم -(هرتزل) ورفاقه- أدركوا أنّ مشروعهم السياسيّ غير قابل للتحقُّق ما لم تجرِ العودة إلى الأفكار الدينيّة، وتوظيف الرمزيّات الدينيّة من أجل حثّ اليهود في العالم، من المؤمنين بالفكر اليهوديّ والمتمسّكين به، للهجرة إلى الوطن القوميّ المُراد إقامته، وتمّ ذلك في فلسطين. وهكذا، تحوَّل خطاب (هرتزل) إلى خطاب يَستخدم الدين، ويبرّر به مشروعه بنحوٍ غريب، إذ يُنهي كتابه «البلاد القديمة الجديدة» بالقول في نهاية المطاف، إنّ مَن سيقيم الدولة، لن تكون التكنولوجيا

والثقة بالنفس والأمم المتّحدة، وإنّما الله[1]! وهكذا، يمكن القول إنّ المشروع الصهيونيّ بدأ سياسيًّا، أو بصيغة سياسيّة خارج نطاق الرؤية الدينيّة اليهوديّة، إلّا أنّ زعماء الصهيونيّة أدركوا استحالة تحقيق المشروع وتكلُّله بالنجاح ما لم يجرِ الارتكان إلى المقولات الدينيّة، وتوظيفها لإقناع اليهود في العالم بمشروعهم، ودفعهم للهجرة أكثر إلى «أرض الميعاد»، وفي الوقت ذاته، محاولة لترضية رجال الدين والجماعات اليهوديّة، واستمالتهم إلى المشروع الصهيونيّ. وبالمناسبة، ثمّة الكثير من الحاخامات ورجال الدين اليهود والحركات والجماعات الدينيّة التي تعارض الاحتلال الصهيونيّ لفلسطين، انطلاقًا من لامشروعيّة هذا الفعل، ومخالفته لليهوديّة، مثل: حركة «ناتوري كارتا NK»، ومنظّمة «الصوت اليهوديّ من أجل السلام JVP»[2]، وغيرهما الكثير من الجماعات التي -مع الأسف- لا تحظى بالدعم الكبير وبالاستماع لها؛ كونها تقف ضدّ الصهيونيّة ومشروعها غير الإنسانيّ.

خامسًا: إدارة التوحُّش بين الصهيونيّة والحداثة الغربيّة

لطالما اشتغلَت الماكنة الإعلاميّة والسياسيّة الصهيونيّة على ترويج

1 - رائف رزيق: إسرائيل - خلفيّة أيديولوجيّة وتاريخيّة، ص11.

2 - للتوسّع أكثر حول الجماعات والمنظّمات اليهوديّة المناهضة للصهيونيّة، يُنظر: «يهود ضدّ الصهيونيّة، تعرّف على أبرز الجماعات اليهوديّة التي تناصر الفلسطينيّين» على الإنترنت: wwww.trtarabi.cim

"الهولوكوست»؛ أي الإبادة التي تعرَّض لها اليهود بفعل الممارسة التي قامت بها سلطات (هتلر) النازيّة. وقد ضُخِّم ما جرى؛ لأغراض الدعاية الصهيونيّة، بنحوٍ جعل هذه الحادثة تقع في أعلى مراحل الإبادات، على الرغم من أنّ الكثير من الجرائم التي ارتكبها المستبدّون في التاريخ، تتجاوز ما حصل في «الهولوكوست»، إلّا أنّ الماكنة الإعلاميّة العالميّة التي تسيطر على خطابها الحركة الصهيونيّة، سعَت، وتسعى، إلى جعلها حادثة غير مسبوقة. بل يمكن ملاحظة أنّ أعلى الأرقام التي يمكن أن تُقال عن عدد اليهود في «الهولوكوست»، لا يتعدّى ستّة ملايين يهوديّ، في حين أنّ عدد ضحايا القتل بأوامر من (هتلر)، تجاوز عددُهم العشرين مليونًا[1]! فلماذا لا نسمع عن الأربعة عشر مليونًا الآخرين؟ هل يذكرهم أحد؟ هل تُقام المحافل ومجالس التأبين السنويّة على أرواحهم، كما تقوم الماكنة الصهيونيّة تجاه اليهود؟

على العموم، وبعيدًا عن النقاشات الجادّة حول ما إذا وقعَت الحادثة أساسًا أو لم تقع -لأنّ هناك من الآراء ما يشكّك بوقوعها أساسًا، أو أنّها وقعَت، لكنّها ليست بالضخامة التي يعمل اليهود الصهاينة على تصويرها- فإنّ هناك مقاربة مهمّة تتعلّق بهذه الحادثة، تستحقّ الوقوف عندها، وهي ما يرتبط بعلاقة الفعل النازيّ وجرائم النازيّة -ويمكن ربطها أيضًا بجرائم

1 - زيغمونت باومان: الحداثة والهولوكوست، ص42.

الكيان الصهيونيّ في غزّة الآن، بعد عمليّة طوفان الأقصى- بالحداثة الغربيّة؛ وبعبارة أخرى، يمكن صياغة الأمر وفق السـؤال الآتي: هل ثمّة علاقة رابطة بين طريقة التفكير والسلوك النازيَّين في قتلهم لليهود، بالحداثة الغربيّة؟ يرى المفكّـر البولّنديّ-البريطانيّ (زيغمونت باومـان - Zygmunt Bauman)[1] وجودَ علاقة وثيقة بين طريقة التفكير النازيّة والفعل الذي قامت به، بوصفها نتاجًـا طبيعيًّا لطريقة التفكير الناتجة عن الحداثـة الغربيّة. فعلى العكس من الصورة التقليديّة التي ترى في «الهولوكوست» حدثًا غريبًا على تقاليد الحداثة الغربيّة ومنجزاتها وآليّات تفكيرها ومساراتها، يعتقد (باومان) أنّها نتاج طبيعيّ متوافق أيمّا توافق؛ إذ يعارض الفكـرة التي تقول إنّ ألمانيا في الحقبة النازيّة مرَّت بتحوّلات بُنيويّة وثقافيّة انحرفَت بها عن مسـار الحداثة الغربيّة، بل إنّه يؤكّد أنّ تاريخ ألمانيا لا يمثّل انحرافًا عن مسـار الحضارة الأوروبّيّة وميراث

1 - زيغمونت باومان: مفكّر بولّنديّ-بريطانيّ، وُلد عام 1925م، أصبح أستاذًا لعلم الاجتماع في جامعة وارسو، إلى أن طُرد منها عام 1968م. انتقل بعدها إلى تل أبيب، ثمّ هاجر منها؛ نتيجة رفضه لما شـاهده فيَها، إلى أن استقرّ بعدها في بريطانيا عام 1971م. وعلى الرغم من جذور (باَومان) اليهوديّة، إلاّ أنّه كان من أشدّ المعارضين للصهيونيّة، بل عَدَّه اليهود من المعادين للساميّة. وكان (باومان) قد شبّه الجدار الذَي تضعه «إسرائيل» في الضفّة الغربيّة، بالجدار الذي وضعَته النازيّة، وأنّها تستخدم «الهولوكوست» كذريعة لشَرْعَنَة أفعالها الوحشيّة. توفيّ (باومان) عام 2017م، تاركًا عددًا كبيراً من المؤلّفات، من أهمّها: «الحداثة والهولوكوست» وسلسلة السيولة. (ينظر: يوسف العلويّ: زيغمونت باومان - سيرة مختصرة، ص25).

فلسـفة التنوير، وهذا يعنـي أنّ النازيّين اتّبعوا عبـادة العقلانيّة، التي هي من مرتكزات الحداثة، فغرسَت الجامعات الألمانيّة الحديثة «النموذج العلميّ» كنشاط منفصل عن القيم الخُلُقيّة، ومن ثمّ فإنّ كلّ تصرُّف منطلق من العلم، لا علاقة له بالقيود والمحدِّدات الخُلُقيّة، فما يعتقدون أنّه يتماشى مع العلم، وما تفرضه الضرورة العلميّة من وجهة نظرهم، يصبح صحيحًا، حتّى وإن كان لاأخلاقيًّا. وهكذا، تعاونَت المؤسّسـات العلميّة الألمانيّة -بكلّ سهولة- في تنفيذ المَهامّ النازيّة، وخضعَت جرائم «الهولوكوست» كافّة للتطبيقات العلميّة والتكنولوجيّة، وقواعد الترشـيد البيروقراطيّ[1]. فما قامت به النازيّة يعبرّ عن ذروة العقل الحداثيّ الغربيّ، الذي أَلَّهَ الإنسان، وجعله إلهًا يقرّر الصواب من الخطأ، بدلاً من الله تعالى، وانفصلَت في هذا العقل القيم الخُلُقيّة عن القيم العلميّـة؛ وبذلك، يكون من الطبيعيّ أن تكون عمليّة قتل الأطفال والشـيوخ والنسـاء الآن في غزّة عبارة عن مجرّد ضغطة زرّ من طائرة يسـيرّها شـخص خلف جهاز الحاسوب. جرى التعامل مع الأرواح والإنسان على أنّهم مجرّد رقـم، رقم ليس إلاّ! والضحايـا في الحروب عبارة عن أرقـام، تزداد أو تقلّ، فهـذا غير مهمّ لهم. وهكذا، فما دام العقـل الصهيونيّ يرتبط بُنيويًّا ومتماهيًا مع العقل الغربيّ من هذا السـياق، يكون طبيعيًّا لنا أن نفهم ما يقومون به من

1 - زيغمونـت باومـان: الحداثة والهولوكوسـت، ص25. (المقدّمة لـ: حجاج أبو جبر) (بتصرّف)

جرائم فظيعة تجاه الأبرياء في فلسطين المحتلة، وهو ذاته العقل الذي جرّد الأخلاق والقيم الخُلُقيّة من الفعل الذي يدّعون أنّه نتاج العلم.

ويقترب المفكّر المصريّ (عبد الوهّاب المسـيري) في كتابه «الصهيونيّة والنازيّة ونهاية التاريـخ»، من طرح (باومان)، حين يؤكّد أنّ إبادة اليهود نتاج طبيعـيّ للحضارة الغربيّة. ذلك أنّها حضارة تكنولوجيّة تُعلي من قيم المعرفة والكفـاءة والإنجاز والتقدّم، مهـما كان الثمن المـادّيّ والمعنويّ المدفوع فيها، وترى أنّ البقاء للأصلح والأقوى دائمًا، وتهمل كثيراً من القيم التقليديّة الصحيحة، التي تعدّهـا «بالية»، مثل: البرّ بالضعفاء، والشـهامة، والتقوى، ومساعدة الآخرين. والنازيّة حينما أبادت اليهود والعَجزة، كانت تفعل ذلك؛ لأنّهم «غير نافعين»[1]. أي إنّها نظرة تنظر إلى الأمور نظرة «براغماتيّة/نفعيّة»، حيث تقييم كلِّ شيء ناجم عن المنفعة التي تتحقّق منه، بعيدًا عن الاعتبارات الخُلُقيّـة كلّها، ويكون طبيعيًّا جـدًّا أن تتعامل الدول الغربيّة -وعلى رأسـها الولايات المتّحدة الأميركيّة وبريطانيا وفرنسا وغيرها- مع القضيّة الفلسطينيّة، ومـع الجرائم الوحشـيّة التـي تُرتكَب باسـتمرار في غزّة منـذ عمليّة طوفان الأقصى، بهـذه الازدواجيّة، التي تكشـف عن غياب الاعتبـارات الخُلُقيّة، وهيمنة البُعد الاستعماريّ في التعاطي.

1 - عبد الوهّاب المسيري، الصهيونيّة والنازيّة ونهاية التاريخ، ص13.

خاتمة

من هنا، يتبـيّن وجود علاقة أسـهَمَت عبرها الحداثـةُ الغربيّةُ في الحركة الصهيونيّة، تارةً عبر التحوّلات الجوهريّة البُنيويّة التي حصلَت في أوروبّا ضمن مخاضات الحداثـة، والتي أثَّرَت في التعامل مـع اليهود داخل المجتمعات الأوروبّيّة، ودفعهم للبحث عن بدائل لتأسـيس وطن لهم، وأخرى عبر تَبَنّي زعماء الحركة الصهيونيّة للكثير من مقولات الفكر الحداثيّ ومتبنّياته، فضلاً عن التحالف الإستراتيجيّ بين المشروع الاستعماريّ الغربيّ الذي تواصلَت وتيرته وتعالت في الحقبة الحداثيّة، وبين الصهيونيّة السياسيّة.

لائحة المصادر والمراجع

1. باومان، زيغمونت، الحداثة والهولوكوست، المركز العربيّ للأبحاث ودراسات السياسات، الدوحة، ط1، 2019م.

2. جنداري، إدريس، «الحرّة الصهيونيّة - مشروع استعماري غربيّ بغطاء يهوديّ»، صحيفة هسبرس (موقع الإنترنت)، الأربعاء 16 مايو/أيّار 2018.

3. رزيق، رائف، إسرائيل - خلفيّة أيديولوجيّة وتاريخيّة، في: دليل إسرائيل عام 2011 (رام الله: مؤسّسة الدارسات الفلسطينيّة)، 2011م.

4. المسيري، عبد الوهّاب، الصهيونيّة والحضارة الغربيّة، دار الهلال، القاهرة، ط1، 2003م.

5. المسيري، عبد الوهّاب، الصهيونيّة والنازيّة ونهاية التاريخ، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2001م.

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

المشرف العام: الشيخ جلال الدين علي الصغير
مدير المركز د. محمد مرتضى
009613821638